الفصل العاشر

زكي نجيب محمود

وفلسفته العلمية

الفصل العاشر

زكي نجيب محمود
وفلسفته العلمية

أولاً: مكانته الفكرية:

د. زكي نجيب محمود (1905 - 1993م) علم من أعلام الفكر الفلسفي العربي المعاصر، تخصص في الفلسفة والمنطق عمومًا وفي الفلسفة الوضعية والمنطق الوضعي بوجه خاص، لم يمنعه تخصصه الدقيق وأستاذيته الجامعية من أن يشارك بفاعلية في تنوير الجماهير العربية منذ تخرجه في مدرسة المعلمين العليا عام 1930م وحتى وفاته وذلك بكل السبل المتاحة من تدريس وتأليف وكتابة في المجلات والصحف الكبرى والأحاديث الإذاعية والتليفزيونية.

ثانياً: حياته وتطوره الفكري

ولد د. زكي نجيب محمود في قرية ميت الخولي من قرى محافظة دمياط بمصر في الأول من فبراير عام 1905م. وتلقى تعليمه في المرحلتين الابتدائية والثانوية بكلية غوردون بالخرطوم عاصمة السودان حيث كان والده يعمل هناك. أما دراسته الجامعية لأولى فكانت بمصر بمدرسة المعلمين العليا وانتهى منها في عام 1930م.

ومنذ ذلك التاريخ بدأ نشاطه الفكري في خطين متوازيين؛ التدريس والمشاركة في الحياة الثقافية بالإقبال الشديد على الاطلاع على كل ما يكتبه كبار الأعلام من المفكرين المصريين والعالميين وفي ذات الوقت بدأ الكتابة لإحدى المجلات الثقافية الهامة في مصر هي

مجلة «الرسالة»، وفي أثناء ذلك سافر عام 1936م في بعثة صيفية إلى إنجلترا لمدة ستة شهور عاد بعدها إلى القاهرة ليغادرها مرة أخرى إلى لندن عام 1944م ليقضي هناك عدة سنوات حصل خلالها على بكالوريوس الفلسفة من الدرجة الأولى من جامعة لندن 1945م، ثم على الدكتوراه في الفلسفة من نفس الجامعة عام 1947م تحت إشراف الدكتور هاليت الذي كان متخصصًا في فلسفة اسبينوزا، وكان موضوع الرسالة «الجبر الذاتي». أثرت هذه السنوات التي قضاها في إنجلترا تأثيرًا كبيرًا على تطوره الفكري فحددت انتماؤه الفلسفي ورؤيته المنهجية. عاد إلى القاهرة ليلتحق بهيئة التدريس بقسم الفلسفة بكلية الآداب - جامعة القاهرة حيث عين مدرسًا بها فأستاذًا مساعدًا فأستاذًا، وقد أصبح أحد أعلام الكلية والجامعة المرموقين دون أن يتولى أي مناصب إدارية حتى توفى في الثامن من سبتمبر 1993م.

سافر إلى الخارج في زيارات عمل عديدة كان أبرزها سفره إلى الولايات المتحدة الأمريكية كأستاذ زائد خلال عامي 1953 - 1954م وإلى الكويت للعمل بجامعتها عدة سنوات كما اختير مستشارًا ثقافيًا لمصر بالولايات المتحدة الأمريكية، كما دعي لإلقاء المحاضرات في عدد من الجامعات العربية.

أشرف على تأسيس مجلة «الفكر المعاصر» عام 1965م ورأس تحريرها حوالي أربع سنوات، كما شارك في الكتابة في العديد من المجلات الثقافية في مصر والوطن العربي كان أبرزها مجلة «الثقافة» التي داوم على الكتابة فيها منذ إنشائها عام 1933م وأشرف على تحريرها عدة سنوات بين عامي 1952 - 1959م. وشارك بفاعلية في النشاط العلمي والثقافي العام من خلال عضويته للعديد من الهيئات والمؤسسات العلمية، ومن خلال انتظامه للكتابة بصحيفة «الأهرام» القاهرية أسبوعيًا منذ عام 1973م حتى وفاته.

حصل على العديد من الجوائز والأوسمة من مصر ومن الهيئات العلمية المختلفة في الوطن العربي؛ وكان أبرز هذه الجوائز جائزة الدولة التشجيعية في الفلسفة عن كتابه «نحو فلسفة علمية» عام 1960م، وجائزة الدولة التقديرية في الأدب عام 1975م. وجائزة الجامعة العربية للثقافة العربية من تونس عام 1984م، ومنحته الجامعة الأمريكية بالقاهرة درجة الدكتوراه الفخرية عام 1985م. كما حصل على جائزة سلطان العويس الثقافية من دولة الإمارات العربية المتحدة عام 1991م.

ثالثًا: مؤلفاته

كتب د. زكي نجيب محمود حوالي أربعين مؤلفًا، كما ترجم عشرة مؤلفات هامة دارت جميعها في مجال الفلسفة والمنطق والأدب. أما أهم هذه المؤلفات فكانت «شروق من الغرب» عام 1951م و«المنطق الوضعي» عام 1951 و«خرافة الميتافيزيقا» عام 1953 و«نحو فلسفة علمية» عام 1958م و«تجديد الفكر العربي» عام 1971م، و«المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري» عام 1972م. وكان من أشهر تلك المؤلفات «ثقافتنا في مواجهة العصر» و«مجتمع جديد أو الكارثة» و«حياة الفكر في العالم الجديد» و«من زاوية فلسفية» و«في حياتنا العقلية»، و«في فلسفة النقد» و«هذا العصر وثقافته» و«هموم المثقفين» و«عن الحرية أتحدث» و«في تحديث الثقافة ا لعربية» و«قشور ولباب» و«الشرق الفنان» و«مع الشعراء» و«جنة العبيط» و«الكوميديا الأرضية» و«أفكار ومواقف» و«قيم من التراث» و«رؤية إسلامية» و«قصة نفس» و«قصة عقل» و«حصاد السنين».

تطور فكر د.زكي نجيب محمود منذ بدأ نشاطه العقلي وعبر هذه المؤلفات على مراحل عدة كل واحدة منها عشر سنوات وصفها هو نفسه في «قصة عقل» بقوله أنه وجد لكل عقد منها في حياته العقلية سمة بارزة تميزه عن سواه، «ففي العقد الأول (1930 - 1940) كنت اقتصر على عرض أفكار أنقلها من أصحابها في كتاب أو في مقالة، وفي العقد الثاني (1940 - 1950م) ركزت طاقتي في نقد الحياة المصرية في مقالات روعي في معظمها أن تلتزم أدب المقالة، ذلك فضلاًعن أن ذلك العقد من السنين هو الذي قضيت جزءه الأوسط دارسًا في إنجلترا ومحصلاً للدكتوراه من جامعة لندن ومبلورًا لنفسي وقفة فلسفية لازمتني إلى اليوم، وفي العقد الثالث (1950 - 1960م) اتجهت بمعظم جهدي نحو التأليف الجامعي وهو تأليف دار كله على محور الوقفة الفلسفية التي انتهجتها، وفي العقد الرابع (1960 - 1970م) صببت اهتمامي على طائفة من الأفكار شاعت يومئذ في حياتنا الثقافية شيوعًا كان طابعه الغموض الشديد فتناولتها بالتحليل الذي يبين حقائقها لتكون على وعي بمضونها قبل أن نجعلها موضوع قبول أو رفض. وأما العقد الخامس (1970 - 1980م) فقد انصرفت خلاله إلى محاولات لم تهدأ للبحث عن نقاط يلتقي فيها جوهر تراثنا بجهود العصر الحاضر لعلنا نجد الصيغة التي تجمع الطرفين في وعاء ثقافي واحد». (ص8 - 9).

رابعاً: خلاصة رؤيته الفكرية وآراؤه

إن نظرة إلى هذا التطور العقدي لفكر زكي نجيب محمود تؤكد أنه بلور فكرته عن صورة التقدم وطريقه ومنهجه خلال سنوات وجوده في أوربا وأمريكا ومنها كان إيمانه بأن التقدم يبدأ من الأخذ بأسباب العلم كما فعل الغربيون منذ عصر نهضتهم. وكانت الصورة المثلى التي أرتآها لذلك هي ما وجده لدى أتباع المذهب الوضعي عامة والوضعي المنطقي بصفة خاصة. وهذا ما نجده قد انعكس في عمله كأستاذ بالجامعة المصرية حيث درس المنطق بصورته الوضعية، وكتب في مطلع وخلال الخمسينيات ثلاثة من أهم مؤلفاته هي «المنطق الوضعي» بجزئيه، و«خرافة الميتافيزيقا»، و«نحو فلسفة علمية»؛ ففي الأول حدد اتجاهه الفكري حينما قال في مقدمة الطبعة الأولى «أنا مؤمن بالعلم كافر بهذا اللغو الذي لا يجدي على أصحابه، ولا على الناس شيئًا، وعندي أن الأمة تأخذ بنصيب من المدنية - يكثر أو يقل - بمقدارما تأخذه بنصيب من العلم ومنهجه».. ومن ثم فقد بلور في هذا الكتاب منهجه التحليلي المنطقي الذي لا يقبل من القضايا إلا ما تشير ألفاظها إلى «أفراد» في الوجود الفعلي.

وبالطبع فإن مجال هذه القضايا هي المجال العلمي، أما ما عداه من ميادين القول كالشعر وغيره من ضروب التعبير الفني فلقضاياه وقياس الصدق فيها معايير أخرى.

لقد كان د. زكي نجيب محمود مدركًا أنه ينبغي التمييز بين الحديث العلمي عن العالم الخارجي وبين أنماط الحيث الأخرى عن نفس هذا العالم. وكان يربط بين التقدم العلمي وبين استخدامنا للقضايا العلمية، فلا نتحدث عن شيء في الطبيعة يراد له أن يكون حديثًا علميًا إلا باستخدام هذا النمط من القضايا التي تشير إلى مفردات الواقع الخارجي واصفه إياه بصفات هي فيه إذ أن هذا هو وحده «الكلام المفهوم الذي يتيح للسامع أن يتحقق منه إما بالرجوع به إلى الوقائع المشار إليها فيه أو بمحاولة استحداث الوقائع التي يزعم المتكلم أن كلامه مرسوم ليهدي من أراد التطبيق كيف تجئ خطواته في التطبيق خطوة بعد أخرى؛ فالأمر في كلام كهذا هو كالخريطة الجغرافية التي يحاول بها الرحالة أن يعرف طريقه فلابد لها أن تكون على علاقة التطابق التام مع تفصيلات الواقع». (قصة عقل، ص109).

إن هذا النوع من القضايا وتمسك د. زكي به في مجال أي حديث علمي أن يراد له أن يكون

كذلك هو ما جعله يكتب «خرافة الميتافيزيقا» في صيف 1953م ليبين أنه ينبغي أن نبتعد عن استخدام هذا الضرب من الكلام والذي يستخدم ألفاظًا لا تشير إلى شيء محسوس من قبيل لفظة « جوهر»؛ فهذه اللفظة هي بحكم تعريفها المنطقي لا تشير إلى شيء محسوس. ومع ذلك فنحن نستخدمها وكأنها تصف وجودًا خارجيًا وهذا غير صحيح!

لقد ميز د. زكي في « خرافة الميتافيزيقا « بين نوعين من الميتافيزيقا ليرفض نوعًا ويقبل آخر؛ أما الميتافيزيقا المرفوضة فهي « التأملية « التي نتورط فيها في الحديث عما وراء «الأشياء» من خفايات عن الحواس فهذه ميتافيزيقا تورط صاحبها في الحديث عن ما لا معنى له ولا وجود فعلي. ولا ينبغي أن نسارع مثلما سارع منتقدو الكتاب وصاحبه بأنه ضد الدين على اعتبار أن الدين في جانب منه حديث عن الغيبيات، فالحقيقة أن هذا يعد خلطًا بين فلسفة ودين و بين علم ودين؛ فالحق أن حديث مفكرنا منصب على إشاعة فكر فلسفي من نوع معين هو ذلك الذي يلتزم فيه صاحبه بالحديث عن الموجودات الفعلية في إطار هذا العلم الذي نعيشه باستخدام عبارات أو قضايا يمكن التحقق منها وفهمها على ضوء المطابقة مع هذا الواقع الموجود أمامنا! أما مجال الدين والإيمان الديني فهو مختلف عن مجال التفكير المقيد بهذا المنطق العلمي؛ «فالإيمان تصديق بغير برهان أما منطق العقل فطريق للبراهين». (قصة عقل، ص111).

وعلى ذلك فإن الميتافيزيقا المقبولة لديه هي ما يطلق عليه الميتافيزيقا «النقدية» التي نحصر حديثنا فيها لا فيما «وراء الأشياء»، بل فيما « وراء الألفاظ» حيث يمكن البحث فيما وراء هذه التركيبة اللفظية أو تلك لنكشف ما استتر وراءها من فروض مضمرة، فهذا بحث مشروع وضروري للفكر إذ يريد صاحبه أن يعمق فهمه للعلم ولقضاياه. وهذا ما فعله كانط الفيلسوف الألماني في كتابه الشهير « نقد العقل الخالص».

لقد أعاد د. زكي بسط رؤيته العلمية - المنطقية تلك في كتابه «نحو فلسفة علمية»، حينما أوضح بصورة مفصلة كيف يمكن للفلسفة أن تتحول من إقامة بناءات ميتافيزيقية عملاقة يقيمها الفيلسوف ليفسر الكون ككل بمبدأ واحد يتبناه، إلى تحليلات متواضعة للأسس التي تبني عليها العلوم المختلفة بناء منهجيًا سليمًا. لقد كانت دعوته إلى فلسفة علمية بأكثر من معنى؛ يدور أولها حول ضرورة أن يكون مدار اهتمامنا الفلسفي هو البحث في قضايا العلوم

ومناهجها محـدودًا بحدود هذا العالم الطبيعي ووقائعه. ويدور ثانيها حول ضرورة أن يكون العمل الفلسفي كالعمل العلمي عملاً جماعيًا نتيجة مشاركة العديد من الأفراد كل منهم يسهم فيـه بنصيب دون أن يتعملق أحدهم فيتصور أن بإمكانه تفسـير كل ما يجري في الكون بمبدأ واحد!. أما المعني الثالث للفلسفة العلمية فهو أن يكتفي هذا الفيلسوف أو ذلك في كل عملية فكريـة يقوم بها بتحليـل جزئية واحدة صغيرة فـإن اكتفاء كل واحد بتحليـل جزئية صغيرة في كل عمليـة فكريـة يقوم بها من شـأنه أن ينضـاف إلى جهده السـابق واللاحق و إلى جهود الآخرين السـابقة والمسـاوقة واللاحقة لنجد أنفسـنا في النهاية على وعي علمي بكل ما يدور حولنـا دون أن يتعملق أيًا منا فيتصور أنه قـادر على فهم الوجود وما وراء الوجود فيأتي كلامه فارغًا ودون معنى محدد!!

وأسـتطيع أن أقول أن مفكرنا في هذه المؤلفات الثلاث قد حدد رؤيته المنهجية والفلسفية بوضـوح ولم يحـد عنها بعد ذلك طوال حياته الفكريـة؛ إذ أن كل ما كتبه في بعد ذلك إنما هو امتداد وتطبيق لتلك النظرة العلمية التي تدور في إطار ما أسماه هو «بالتجريبية العلمية»؛ ففي كتاباتـه حتى العميقة منها التزم حدود هـذه التجريبية العلمية فكان يكتفي بتحليل جزئيات صغيرة في كل مقالة يكتبها بحيث يأتي التحليل كاشفًا بوضوح عما وراء ما نستخدمه في حياتنا الواقعية من ألفاظ ومفاهيم ومبينًا لضرورة أن نلتزم في تفكيرنا بحدود فهم هذا الواقع وتطويره بما يأتي بنتائج عملية ناجحة.

لقـد كان في كل كتاباته داعية إلى ثورة فكرية مفادهـا ضرورة تغيير منهجنا في التفكير ليلتزم حدود التجربة العلمية، فتطوير منهج التفكير هو سبيلنا إلى المجتمع الجديد الذي ننشده، ذلك المجتمع الذي يأخذ بأسباب التقدم مثلما أخذ به الغربيون منذ مطلع عصر نهضتهم.

عـبر د. زكي عن ضرورة هذه الثورة الفكرية - المنهجيـة في عدد من مؤلفاته منها «مجتمع جديـد أو الكارثة»، و«هذا العـصر وثقافته»، و«في حياتنا العقليـة»، كما أوضح ضرورة أن نتجـاوز عن أزمة العقل في حياتنا حتى يمكننا اللحاق بركب التقدم لنشـارك في حضارة العصر عـلى أساسـين؛ أولهما يبدو حينما نـدرك بوضوح الهوة التـي تفصل بين رؤيتنـا للعالم ورؤية العصر له، وقد كشف عن مدى اتساع هذه الهوة في كتابه «ثقافتنا في مواجهة العصر» وثانيهما يتضح حينما نحدد لأنفسـنا طريقًا واضحًا للتجديد المأمول في فكرنا؛ طريقًا يحدده التسـاؤل

حول كيف السبيل إلى المشاركة في ثقافة العصر التي نعيشها اليوم!! إن هذا الطريق لابد - في نظر مفكرنا - أن يجتمع فيه عناصر من ثقافتنا الموروثة التي لا نستطيع أن نطرحها جانبًا لأنها كامنة فينا ولا نستطيع العيش بدونها، مع ثقافة هذا العصر الذي نحياه شريطة ألا يأتي هذا الاجتماع بين الثقافتين تجاورًا بين متنافرين بل يأتي تضافرًا تنسج فيه خيوط الموروث مع خيوط العصر نسيج اللحمة والسدي.

فثقافتنا الموروثة وخاصة في عصرها الإسلامي الزاهر زاهرة بما يؤكد تمجيدها «للعقل» إعلائها من شأن «العلم»، وقيمنا الإسلامية الأصيلة في مجملها قيم إيجابية متسقة مع روح العصر الحاضر وتتوافق معه. وقد أجهد د. زكي نفسه في إثبات ذلك وبيانه من خلال رحلة طويلة عميقة خاضها في قراءة معالم التراث العربي - الإسلامي بدت في كتاباته وخاصة في «المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري» و«قيم من التراث» و«رؤية إسلامية». ونحن قادرون إذا أردنا وامتلكنا إرادة التقدم ومنهجه، ومن خلال استجلاء تلك القيم الإيجابية في تراثنا، تلك القيم الداعية إلى «العلم» و«العقل» بوازع من الإيمان الديني، قادرون على أن نمتلك مقومات المشاركة في حضارة العصر بأوسع صورة ممكنة بتقديم تلك النظرة الثنائية - التي تميز ثقافتنا - سواء من ناحية النظر التي يمكن أن «نسد من خلالها فجوات كثيرة مما يعيب المذاهب الفلسفية السائدة في غير بلادنا؛ فهي تضمن لنا الجمع بين العلم وكرامة الإنسان بعد أن رأينا الجمع بينهما متعذرًا في أوربا وأمريكا». (تجديد الفكر العربي، ط8، ص283).

إن جوهر فكر زكي نجيب محمود الفلسفي تلخصه كلمات ثلاث «العقل»، «العلم»، «العمل»؛ إن الإيمان بأهمية إعمال العقل بحرية في كل ما يحيط بنا وكل ما يعرض علينا من مشكلات ضروري للتقدم، ولابد لكي نعمل العقل ويعود علينا ذلك بالفائدة المرجوة أن نلتزم في ذلك حدود التفكير العلمي وألا نستخدم في حديثنا إلا القضايا والألفاظ التي تتطابق مع واقع موجود أمامنا. وإذا أضفنا إلى هذا وذلك العمل الذي يلتزم بما أقره العقل «وأنتجه» العلم لكان هذا سبيلنا إلى التقدم، ونقطة البداية في المشاركة الإيجابية في حضارة العصر لأننا حينئذ نكون قد امتلكنا عناصر ثقافة العصر وما علينا بعدئذ ومعه إلا أن نحاول الإضافة في فلسفة العصر مما نمتلكه بالفعل من قيم إيجابية تحافظ على التوازن الإنساني، سواء في نظرة الإنسان إلى الكون أو في نظرته إلى نفسه. فهذا التوازن الذي ندركه ونملكه من ثقافتنا الموروثة ومن

معتقدنـا الديني هو ما تفتقده الفلسـفات الغربية المختلفة في عصرنـا هذا. وبذا يتحقق الجمع الإيجابي «بين الأصالة والمعاصرة»، وبذلك تنهض ثقافتنا العربية من عثرتها وتشارك من جديد في صنع الثقافة المعاصرة.

أهم المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

د. زكي نجيب محمود:

- المنطق الوضعي: الجزء الأول، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، 1961م.
- خرافة الميتافيزيقا، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1953م.
- نحو فلسفة علمية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، 1968م.
- تجديد الفكر العربي، مكتبة دار الشروق، القاهرة، بيروت، الطبعة الثامنة، 1987م.
- المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الرابعة، 1987م.
- قصة نفس، دار ا لشروق، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1988م.
- في تحديث الثقافة العربية، دار الشروق، القاهرة، بيروت 1987م.
- ثقافتنا في مواجهة العصر، دار الشروق بالقاهرة وبيروت، بدون تاريخ.
- قيم من التراث، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى 1984م.
- هذا العصر وثقافته، دار الشروق، القاهرة، بيروت، الطبعة الثانية، 1982م.
- في حياتنا العقلية، دار الشروق، القاهرة، بيروت، الطبعة الأولى 1979م.

ثانيا: المراجع

- **د. زكي نجيب محمود فيلسوفاً وأديبًا:** كتاب تذاكري أصدرته جامعة الكويت تكريمًا للأستاذ الدكتور زكي نجيب محمود بإشراف د. عزمي إسلام، طبعة دار الوطن، الكويت 1987م.

- **د.زكي نجيب محمود:** كتاب تذكاري بإراف د. حسـن حنفي أصدره المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 1998م.

د. عاطف العراقي:

- العقل والتنوير في الفكر العربي المعاصر، دار قباء للطباعة والنشر والتوظيف، القاهرة 1998م.

د. مصطفى النشار:

- بين قرنين، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة 2000م.